من أجل تنفيذ (جدارية وطني) للفنان الرائد محمود صبري

فيصل لعيبي

يحتفل العراقيون من المثقفين المتنورين الديموقراطيين والتقدميين ، بثمانينية الفنان الكبير والرائد الملهم محمود صبري. وهم بهذا يعيدون تقليداً جديداً نسبياً في عالم المعرفة والثقافة العراقيتين ، حقاً انه شيء مفرح ويثلج الصدر ، خاصة في هذه الأجواء المقبضة والرعب المحيط بنا من جميع الجهات .
لكن الإحتفال والتكريم لمحمود صبري لايكتملان إلا بالإهتمام بنتاجه الفني العملي والنظري معاً،فهو صاحب مساهمات غير قليلة وذات طابع جذري ومغيِر في مسيرة الثقافة والفن عموماً.
- فهل سيجري مثلاً إقتناء أعماله المركونة في شقته الضيقة بمدينة براغ ؟
- هل ستقام له قاعة خاصة بأعماله يمكن لمتتبعي الفن وتأريخه في العراق زيارتها ودراسة نتاجاته الفنية فيها ؟
- هل سيسترجع المتحف العراقي للفن الحديث ، بعض الأعمال الموجودة لدى بعض معارف الفنان ، بتعويض مناسب ليكمل مجموعته عن الفنان؟
- هناك مشاريع عديدة للفنان، سواء التي كانت تعود للفترات السابقة أو الفترة التي بدأ فيها البحث في دعوته الى (واقعية الكم)، فهل ستبادر الجهات الرسمية وغير الرسمية لتنفيذ ما يمكن تنفيذه من تلك المشاريع ؟
- ماذا عن تقاعد الفنان وعيشه الكريم، ببيت يليق به ومشغل يحتوي على مستلزمات العمل ولمتابعة البحث الجاد لأفكاره؟.
لقد أنتج الفنان محمود صبري العديد من الأعمال الفنية، التي تصلح للساحات العامة والحدائق والمتنزهات، وحتى واجهات البنايات العالية، وهي تحمل قيماً فنية عالية المستوى وعميقة المضمون .
سوف أتكلم عن عمل مهمل منذ أكثر من (٤٥ عاماً)، كان المفروض تنفيذه خلال السنة الخامسة أو السادسة لثورة (١٤ تموز) المجيدة، لكن إنقلاب شباط الفاشي عام (١٩٦٣) أوقف كل شيء ، ولم يعد في الإمكان الحديث عن الأعمال الفنية ، فقد أصبحت حياة العراقيين أنفسهم في خطر حقيقي ودائم ، منذ تلك الساعة المشؤومة ، التي جعلت حثالات الناس تقرر مصير بلد مثل العراق ! .
كانت جدارية (وطني) ، التي كان المفروض أن تكون خلف جدارية الفنان الخالد جواد سليم : (نصب الحرية) ، قد تم تنفيذالمخطط الأول لها بحدود عام ١٩٦٢ ، وقد ذهب الفنان محمود صبري وقتها الى الإتحاد السوفياتي لهذا الغرض ، وللتعرف على تجربة السوفيات في الفن الجداري والنصب الفنية التي تتعلق بقضايا المجتمع ونضالات الشعوب .
لا يزال الفراغ الذي ترك للجدارية قائماً حتى يومنا هذا ، حيث تركت مساحة خالية من قطع المرمر في الجانب الخلفي لجدارية جواد .
تروي لنا جدارية (وطني) تاريخ نضال الشعب العراقي ، منذ بداية القرن العشرين وحتى قيام ثورة ١٤ تموزعام ١٩٥٨ . وتتميز بالاسلوب التعبيري المؤثر ، الذي عرف به الفنان، وتضم الجدارية النساء والرجال والأطفال ،المناضلين ومنتجي قوت الشعب من العمال والفلاحين ، وكذلك الفئات المثقفة والواعية التي تساهم هي الأخرى في ذلك التاريخ .
الجدارية تمتد على طول الجدار الخلفي لنصب الحرية ، وهي منجز مهم من منجزات الثقافة العراقية الحديثة ، وتنتمي الى تلك الفترة الذهبية من ثقافتنا الوطنية المعاصرة ، حيث وضع الخمسينيون والستينيون (١٩٤٠-١٩٥٠-١٩٦٠) مشروعهم الحضاري لعراق القرن العشرين الذي لانزال نراوح في مكاننا من أجل تنفيذه !.
ان جدارية (وطني) جزء من تراثنا الثقافي الديموقراطي المنسي ، وهي علامة مهمة وبارزة على إلتصاق الفنان بهموم مجتمعه وقضاياه العادلة ، حيث نشاهد فيها تلك الوجوه التي غطاها تعب السنين والكدح المستمر وعذابات الأيام وظلم القوى الممسكة بالسلطة .
مظاهرات وشهداء ودماء زكية وأجساد تهوي على أسفلت الشوارع الساخنة ، رايات مرفوعة ترفرف في سماء العراق وسواعد تتحدى الطغيان ووجوه غاضبة وعيون سومرية تبحث عن خلاص .
النساء العراقيات بملابسهن الحزينة السوداء جنوبيات ومفعمات بالتحدي والصمود ، طبول النصر والفرح بنهاية الطغيان موسيقى الشارع العراقي المرحة .
أهيب بابناء العراق الذين يدركون قيمة التراث الفني والحضاري للشعب العراقي ، أن يشمروا عن أذرعهم ويقوموا باستكتاب لجمع التبرعات من أجل تنفيذ هذا العمل المهم ، في حالة رفض الحكومة أو البرلمان القيام بتنفيذ هذا المنجز الذي يفتخر به كل عراقي يحب بلده ويسعى لرفعته .
وهذا ليس بغريب على شعب العراق ، فهناك تجربة مماثلة ، سنها الشعب المصري الرائع ، عندما قام بحملة تبرعات لإقامة نصب (نهضة مصر) للفنان الخالد محمود مختار ، أبن النيل الوفي .
ليكن الإحتفاء بمحمود صبري إحتفاء بالعبقرية العراقية التي يراد لها أن تموت تحت أحذية الإحتلال ونعل الجهلة والظلاميين وبقايا عصابات النظام السابق .
تحية للفنان الكبير محمود صبري ومزيداً من الإبداع والعطاء والعمر المديد.

محمد شكري..منفى المكان وانفلات الزمن الابداعي

د. فاضل سوداني
طنجة

يعتبر محمد شكري أحد الكتاب الأكثر عصامية ومعايشة للاعماق السفلى لمدينة طنجة التي احبها وسئم منها وكرهها وكرهته ، لكنه امتلك تعويذته ونظرته الثاقبة لحياة متفردة قلما تناولها الادب ، فهو المنفي الذي بحث طويلا عن سر مدينته ،وطنجة كانت منفاه وصيرورته .وكمدينة متعددة الثقافات مما انقذه هذا من الأمية الثقافية وساعده على فهم سر منفاه الداخلي في ذلك الزمن المنفلت الذي ساعده على زعامة المهمشين وامتلاك نشوة العاشق لبحرها ، فهو حارس سجل الموتى وشاهد على الخراب الذي تجاوزه عندما امتلك سر طنجة وقدرة الكتابة عنها ..

طفولة الماضي

ولهذا فان شكري يوقظ الماضي وهو شاهد عليه ، أي انه شاهد على طفولة الماضي ، انه طفل الماضي يكتب بوعي رجل الحاضر الاني.
لذلك فشخصياته لاتعيش الحاضر الا كوجود فيزيقي ، فهم يعيشون الحاضر بوعي وحلم الماضي المتأسى عليه دائما . فحاضر شكري وشخصياته لا تمتلك برآءة الماضي ، لذا فانه حاضر مرفوض ابدا.
وبالرغم من صعوبة استحضار الماضي الا انه هو الذي يشكل الحاضردائما ، لانه الزمن الذي يستقي شكري وجوده منه ووجود مخلوقاته من المهمشين الذين هم شخصيات اما انها تعيش (الان) في واقع حقيقي وشكري يعرفهم ويتعايش معهم في حاضر المدينة ، ولم يتعود شكري ان يترك شخصياته بل هو يتابع مصائرهم الاخيرة حتى النهاية . وقد شكل هذا هاجسا له في حياته. فشكري يعرف ما آلوا اليه و في أي مكان هاموا على وجوههم ويتابع ايضا مصائرهم .
اذ لا يمكن تصور شكري من دون مخلوقاته المهمشة في طنجة ، فوجوده ووجودهم مرتبط فقط بزمن الابداع ، انه زمن الحلم والزمن المنفلت كزمن طنجة الابداعي . اما وجود مخلوقاته الواقعي كظلال تشبع غرائزها باستمرار فهووجود مهمش ، أي الوجود اللامبدع ، .
فهذه الشخصيات تبحث عن مصائرها و تهيم دائما في الفضاء السفلي لطنجة وهي في زمنها الدولي الاخير ،حيث كانت مدينة يغزوها بحارة العالم وجميع اصناف البشر وتتنوع فيها اماكن اللهو، والمقاهي الدبقة وبارات العنف، ومواخيرها غنية بكل شيء وازقتها التي تبدو كمتاهات يتيه فيها العارف . في مثل هذا الجو اكتشف محمد شكري ذاته وشخصياته لذا فان وجودها الحقيقي مرتبط به ، إذ ليس لها وجود حقيقي يتجاوز الماضي الا من خلال تناوله الابداعي لها اما وجودهم الواقعي فهو خارج زمن الابداع المنفلت.
وشكري موجود في الحاضر ككيان ووجود جسدي اما زمن الابداع فهو الزمن المنفلت لذاكرة الماضي وهو القادر بالذات على تصوره واستعادته ، فهو يعيش في طنجته التي يشكلها كيفما يشاء .

لذا فان كل من يترك طنجة من مخلوقات شكري الى موانئ اخرى لا بد ان يعود لها في محاولة لفهم سرها بالرغم من انه يعرف بغدم امكانية ان يكون سيدها ، كما هو الحال مع ريكاردو في السيرة الروائية لا سفر ، او عودة فاطي في سيرة العائدة من مجموعة وجوه .
ان معظم مخلوقات شكري من المومسات وسمسارات الجسد، يمتن وحيدات ومغمورات ، لأن توهج زمنهن مرتبط بتوهج الزمن الطنجي. وما غروب جمالهن وتوهجهن إلا نتيجة لغروب مجد طنجة الغابراو لغروب براءة الزمن الطنجي كوجود ديناميكي في زمن طفولة المدينة.
كان شكري يهمس لمدينته التي يجملها لون البحر ويلعقها زبده أبديا ، وبين ماضيها وحاضرها هنالك فردوس مفقود ، وشكري في مجمل حياته حاول البحث عنه ، وبالرغم من اليأس الا أن هذا هو تمايز شكري في جميع كتاباته .

عندما تتشابه المنافي

وفي طنجه اكتشفت بان المنافي والمدن والوجوه تتشابه وكذلك الفراديس المفقودة . ففي السيرة الذاتية الثالثة لمحمد شكري المعنونة وجوه كتب في " اخبار الموت والموتى" عن منصف وهو احد المهمشين الذين يعرفهم في المدينة .
ان منصف . من شخصيات السيرة الذاتية لشكري . يمتلك فرادته ويعيش انفلات الزمن الطنجي ، وقد بدا باكرا ولعه باخبار الموت والموتى حتى اصبح مؤرخ الموت الجوال في طنجة واول من يعرف خبر موت شخص ما بعد اهل المتوفي ودائما يمكنك ان تحصل على (الخبر اليقين سواء مات الشخص في طنجه او في الاغتراب . وكل رواية عن الموت لها مستوياتها في الواقع المحض او المطعم بالخيال وكل موت له لون . هل كان موت المتوفي احمر يعني " الموت قتلا" او ابيض يعني "الموت طبيعي او فجأ ة " او كان اسودا يعني "الموت خنقا" ، ثم هل كان صالحا ام طالحا ... ومن منصف تسمع كما تريد ان تعرف) يطيل دائما بتفاصيل الموتى الاغنياء ، اما الفقراء فيتحدث عن المتوفي منهم كل حسب علاقته به او احترامه له او حسب علاقتك وموقفك انت السائل من المتوفي ، هاهو منصف يبدو وكانه اسطورة تعيش على ارض طنجة .
واندهشت للتشابه الكبير بينه وبين احد المهمشين في مدينتي العمارة جنوب العراق كنا ندعوه "صاحب ابو الموتى" اذ دفعني السحر الغرائبي للمدينة إلى التعرف والتعاطف مع منبوذيها من الهامشيين والمتمردين والفقراء والغرباء التائهين لأن عوالمهم كانت تزيد من غرائب الأمر ومن احساسي بانفلات الزمن .
و صاحب مثل منصف يهتم باخبار الموت والموتى . ففي شارع القادرية في مدينة العمارة كان صاحب يجلس ساعات طويلة في دكانه المظلم والفارغ من كل شئ الا من علب الصفيح الضدئة لمختلف المعلبات الفارغة . ولهذا فان المدينة لاتحترمه بالرغم من انه تعدى الخمسين عاما ، وتعده مجنونا ولا يشاركونه فعالياتهم الاجتماعية الا في صلاة الجماعة في المسجد فانهم غير قادرين على منعه .
وكان لديه سجل سري ضخم لجميع موتى المدينة . كان يجلس في دكانه كل يوم وبانتظام وهو بملابسه الشعبية النظيفة ، اما ان يقرأ القرآن او يكتب وينقح المعلومات في سجله ، إذ هو يكتب عن الحالة الاجتماعية للمتوفي ومكانته الطبقية وعدد ابنائه ومكان سكنه او سكنهم وبالتالي تقدير ثروته ان كان غنيا ، اما الفقراء فيضعهم في زاوية وتحت عبارة . لايملك سوى الكفن الذي تكفن به . .
ان الكثيرين يلجؤن له سخرية لمعرفة اخبار الموتى ، ولكن الشباب العاطل الذي يبحث دائما عن الطعام الذي يقدم في العزاء على روح المتوفي يحترمون دقة معلوماته .
وعند حصول صاحب على المعلومة الاولية للوفاة يبدأ بمهمة اخبار كل من يراه عن موت المتوفي للمساهمة بتشييع الجنازة ويكون هو اولهم ومن ثم المشاركة في تحضير ضروريات العزاء او الدفن . ويبدأ بعد ذلك ملازمة العزاء للمدة المحددة بثلاثة ايام،واثنائها يجمع المعلومات اللازمة عن الوفاة والمتوفي.
وعند إخراجي لمسرحية "حفار القبور" في مدينتي العمارة (في بداية السبعينات من القرن العشرين) وهي اعداد شعري عن بدر شاكر السياب ، اثار العنوان مهمشا اسمه صاحب ابو الموتى فقدمت له دعوة خاصة . وفي اليوم الاول للعرض كان مدير التربية والتعليم ومدير النشاط الفني والموظفون الاخرون من المتملقين ينتظرون في باب المسرح لاستقبال محافظ المدينة . اما انا فكنت انتظر لأستقبال صاحب "أبو الموتى" وعندما وصل، استقبلته بحرارة، وأجلسته في مقعد في الصف الثالث خلف المحافظ ، أمام اندهاش الجمهور، وغرابة الأمر فالجميع كان يعرفه اضافة الى التعليقات الرافضة للامرالتي لحقت بي بعد ذلك من قبل المسؤولين. ولكنني عرفت بأنه من القلائل الذين فهموا فكرة المسرحية وطبيعة إخراجها التجريبي .
وفي اثناء الحر ب العراقية الايرانية اصبحت سجلاته عامرة بالموتى حتى تعددت وكثرت ، وعندما طالت الحرب ضاع على صاحب حساب وتسجيل العدد الهائل للقتلى من الشباب . وبعد ذلك علمت بانه هجر سجله ودكانه وهام على وجهه في طرقات المدينة واسواقها رث الثياب يهذي بسبب قتل ابنه في الحرب وضياع جثته في الاوحال دون ان يستلمها .
وخلاصة القول بان محمد شكري كتب عن منفاه الداخلي وهو في مدينته وكانه كتب عن جميع المنافي والمنفيين وهو يعي بان العيش في المنفى الداخلي حتى وان كان هو في وطنه يساعده على الأبداع مادام المنفى يشكل قيمة ابداعية جديدة، وبهذا الابداع فان الكاتب يستعيض به عما فقده وتصبح النستولجيا هي منفى للمكان وانفلات للزمن الابداعي ، ومن أجل هذا على المبدع أن يعمل على نفي نفسه فنيا ، وتغريب ذاته وهو في وطنه كامتحان، ويعتبر هذا جزءا من تدريبه لمواجهة الذات من أجل أن يمتلك لغته الخاصة التي تختلف عن لغة مجتمعه أي ان يمتلك ذاته الابداعية.

رسالة باريس الثقافية

بابل في متحف اللوفر

د. مهدي صالح حمادي
باريس

يقام حالياً وحتى الثاني من حزيران ٢٠٠٨ معرض كبير عن مدينة بابل في قاعة نابليون في متحف اللوفر في العاصمة الفرنسية باريس، وهذه هي المرة الاولى التي يقام فيها مثل هذا المعرض الفخم عن هذه المدينة التاريخية التي ستبقى راسخة في أذهان الجميع، تلك المدينة

المبنية من الحجر والصخور ذات الاسوار الشاهقة والابواب العملاقة المزينة بالسيراميك الازرق والقصور الفخمة والحدائق المنحدرة من السطوح والتي تمتد الى نهر الفرات الذي يشق هذه المدينة ويسقيها . وتتجلى روعة بابل في برجها الشامخ في وسطها وكأنه يحاكي السماء والالهة. انه ليوم خالد ومبارك ذلك اليوم الذي حقق فيه الانسان هدفاً سامياً وانجازاً رائعاً باكتشافه عاصمة الشرق القديم وكبرى مدن العالم التي يفتخر بها الجميع على مر العصور ز لقد دمرت هذه المدينة لكنها عادت من جديد في القرنين الثامن والتاسع عشر عندما قام علماء الأثار من المهتمين بالكتابة السومرية بالتنقيب في مناطق مختلفة من العراق وخصوصاً بابل وتكتسب هذه المدينة الان اهمية خاصة واعترافاً علنياً بكونها من أمهات المدن التاريخية في العالم اجمع وذلك من خلال إقامة هذا المعرض الكبير الذي يتجاوز حدود المعارض التقليدية المعتادة إذ انه يضم (٤٠٠) قطعة أثرية ووثيقة تاريخية جلبت من (١٣) بلداً إضافة الى الاثار الموجودة في متحف اللوفر ويهدف هذا المعرض الى التعريف بتاريخ بابل منذ نشوئها وحتى سقوطها واعتبارها إرثاً ثقافيا وعلمياً للانسانية جمعاء. ان بابل هي ثمرة اول حضارة عريقة الا وهي حضارة وادي الرافدين . فهي مدينة مقدسة في زمن ساركون الاكدي (٢٣٤٠) ق. م ويتزامن أوج مجدها مع فترتين مهمتين : الاولى هي عصر حمورابي (١٧٩٢ . ١٧٥٠) ق. م الذي كان ملكاً عظيماً إشتهر بمجموعة القوانين التي تحمل اسمه واكسبها شهرة كبيرة بجعلها مدينة للعلم ، وتعود الفترة الثانية الى عصر نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ . ٥٦٢) ق. م الذي يلقب بالملك المؤسس وخالق العجائب الشهيرة علماً ان علماء الآثار يستمدون أدق معلوماتهم عن بابل في هذه الفترة ، لقد دمرت بابل وأفل نجمها لكنها عادت لتزدهر من جديد لأنها فرضت نفسها كمركز ثقافي وروحي من الدرجة الاولى فبين جدرانها ولدت العقول الفذة من علماء ومنجمين وفلكيين واطباء واصبحت حلقة وصل بين الالهة والانسان، لقد كانت بابل مدينة كبيرة في عصر نبو خذ نصر الثاني إذ كانت مساحتها تضاهي مساحة مدينة باريس في عصر نابليون الثالث وكان عدد سكانها (١٠٠) الف نسمة وتضم اثنين من عجائب الدنيا السبع حسب الجغرافي اليوناني سترايون وكانت تتميز بنظام دفاعي رادع واسوار مذهلة . وكان الزوار يدخلونها من ثمانية ابواب اهمها باب الملكة عشتار وتسيد البابليون ابراجاً كبيرة تقديراً لألهتهم على غرار الايطاليين الذين شيدوا ابراجاً للاجراس في عصر النهضة. واهم برج شيده هو برج بابل الذي يبلغ ارتفاعه (٩٠) متراً والذي ورد اسمه في الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين والذي أبهر الاسرى اليهود عند وصولهم الى مدينة بابل.
ويتعرف الزائر على تاريخ وحضارة هذه المدينة العريقة من خلال الآثار المعروضة والمجوهرات والمنحوتات والرقم الطينية ، ان هذا المعرض هو رد اعتبار لهذه المدينة التي غرست فينا حب الكتابة والمعرفة اذ ان علماءها هم الذين اخترعوا الانسكلو بيديا وطوروا علم الفلك وقسموا الدائرة الى (٣٦٠) درجة والسنة الى (١٢) شهرا وكتب شعراؤها أروع الاساطير الادبية مثل ملحمة كلكامش . كما وان بابل هي التي فتحت أذهاننا وجعلتنا نحلم برؤية مدينة خضراء تتسم بمبادئ انسانية سامية.
هذا ويتمكن الزائر من حضور ندوات ثقافية وحفلات موسيقية ومشاهدة الفلم الوثائقي الذي يحمل اسم (باء...كما في بابل) من اخراج كرستين توماس وبرنارد جورج وشراء بعض الكتب مثل (بابل من فجر ثقافتنا)لجان بوتيرو المتخصص بالشرق القديم و(بابل) لبياتريس أندريه سالفيين.
ان هذا المعرض ماهو الا دعوة صريحة لأعادة بناء هذه المدينة العظيمة.